## من تراب الطريق (٣٨٢) رأيت فيما يرى النائم!(*)

رأيت فيما يرى النائم الحالم ، أنه قد صارت بيدى الأمور فى مصر المحروسة ، فماذا ترانى فاعلا لإصلاح الأحوال ؟! رأيتنى أحلم بتشكيل هيئة تأسيسية من فقهاء القانون والدستور ، وخبراء السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والثقافة ، لتضع المبادئ العامة ثم تصوغ دستورا للبلاد يتفاعل تفاعلا حقيقيا مع الواقع وعناصره ويستشرف المستقبل وما يستلزمه ، ويضع الأسس لجمهورية تتوازن فيها السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، ويكفل حرية الرأي والفكر والتعبير، وحرية الصحافة وإصدار الصحف ، وحرية تكوين الأحزاب بلا وصاية تحت أى شكل ، ويوفر الرقابة القضائية للانتخابات الرئاسية والتشريعية ، ويرسى مبدأ سيادة القانون وخضوع الدولة له ، والمساواة الحقيقية بين المواطنين ، وحقوق المواطنة وما يكفلها ، واستقلال القضاء استقلالاً حقيقيا لا يعطى هوامش ـ أي هوامش ـ لتدخل السلطة التنفيذية أو المساس بأي صورة باستقلال القاضي ، وتحديد رئاسة الجمهورية بمدتين لا ثالث لهما إلا بعد انقطاع يشغله رئيس آخر فى ولاية أخرى ، وحماية هذه الحدود من التعديل بنص فى الدستور يحظر ـ إن حدث تعديل ـ سريانه على من يكون بالمنصب عند إجرائه ، ويقرر عدم جواز الترشح

(*) المال ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٩

لمن كان قريبا للرئيس حتى الدرجة الثانية إلا بعد ولاية لرئيس آخر ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن هذا الدستور قد كفل حقيقةً لاشعارًا ! ـ سيادة الشعب وأنه بالفعل مصدر السلطات لا يُفتأت منها عليه ، ويكفل المقومات الاجتماعية والخلقية والاقتصادية ، ويوازن موازنة دقيقة بين الحريات والحقوق والواجبات العامة ، فيجعل الكل أمام القانون سواء ، ويكفل الحرية الشخصية ويصونها من أى مساس ، ويحظر الاعتقال بدون أمر قضائى يعاد عرضه تلقائيًا على القضاء كل ستة أشهر على الأكثر ، ويقيد مدته بحد أقصى لا تتعداه وإلا وجب الإفراج ، ويقرر جدارًا حقيقيًّا لحماية حرمة الحياة الخاصة ، ويقوم نظامه البرلماني على مجلسين لهما سلطة تشريعية أولى وثانية كمجلسى النواب والشيوخ ، وأسس ونظام للمحكمة الدستورية العليا يحقق لها الاستقلال الكامل ويحميها من الاختراق !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم ، أن الهيئة التأسيسية قد عرضت المبادئ العامة على الشعب فى استفتاء عام بتفصيل يسمح بتفريد الاختيارات ، ثم عرضت بذات النظام صياغة المبادئ على الشعب بما يتيح له التعبير عن إرادته تعبيرا حرًا خاليا من أى التباس !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم أنه قد قامت فى مصر أحزاب حقيقية متفاعلة مع الشعب تعبر عن تياراته وتوجهاته تعبيرًا يصادف الواقع ، وتقوم فيها أبنية بكوادر حقيقية يجرى فيها تداول السلطة باختيارات حرة ، وأن هذه الأحزاب قد طفقت تتنافس بالديمقراطية على ولاية

الحكم فى ظل الدستور الذى ارتضاه الشعب صاحب السيادة ومصدر السلطات ، ورأيت فيما يرى النائم أن الانتخابات صارت تجرى بشفافية تحت إشراف القضاء بلا تدخلات ولا تزوير ، ويأتى تشكيل مجلسى البرلمان وفق إرادة الناخبين ، معبرا تعبير حقيقيا عن الشعب ، ينتخب كل مجلس من بين أعضائه الرئيس والوكيلين ورؤساء ومقررى اللجان ، وأن تداول المواقع بالمجلسين صار هو السنة الجارية وفق اختيارات الأعضاء ، وأنه لم يعد ممكنا وفق هذه الآلية الديمقراطية أن يعمر أحد فى موقعه ، وكذلك الوزراء ، صار كل منهم تعبيرًا عن مكانة تفرض نفسها فى الحزب الذى فاز بأغلبية حقيقية فشكل الوزارة باختيارات تعبر عن كوادره التى يعرف كل منها قيمته ووزنه وإمكانياته ، ويملأ مكانه كوزير سياسى فعلا يصدر فيما يراه عن رؤية نابعة منه غير مملاة عليه !

ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن الصحافة قد تحررت من كل القيود ، وصارت بالفعل مملوكة للشعب من خلال شركات مساهمة تحدد فيها حصص المساهمات على نحو لا يسمح بالاستحواذ ويكفل للقاعدة العريضة حرية الاختيار للأصلح للإدارة ورئاسة التحرير ، وأن هذه الصحف قد جعلت تتقدم إلى الصحافة وتؤدى رسالتها بحرية تامة وفى استقلال حقيقى لخدمة المجتمع والتعبير عن اتجاهات الرأى العام والإسهام على نحو صحي فى تكوينه وتوجيهه فى إطار الأسس والمقومات التى ارتضاها الشعب فى الدستور الجديد .

ورأيت فيما يرى النائم الحالم تواصلا حيا بين الأجيال ، تمتزج فيه خبرة الشيوخ مع حماس وقوة الشباب ، فى تداول للمواقع لا تتصاغر فيه الاختيارات أو تنحى القامات المخلصة القادرة على العطاء بعلمها وخبراتها وصدق توجهها للوطن ومصالحه لا للسلطان وما يريده ، ورأيت فيما يرى النائم أن صلاح وعدالة الإدارة ، قد انتشل الفقراء من الفقر المدقع ، ودفع بهم للإسهام الكريم فى صناعة الحياة ، وانتهى تحالف المال مع السلطة ، وصار المال فى خدمة المجتمع ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أن قيمة الفرد قد صارت فيه ، لا بحسبه ولا بنسبه ولا بماله ، وإنما بقدراته وعطائه وبذله فى خدمة المجتمع ، وأن التعليم قد صلح حاله وطفق يفرز ويقدم للوطن متعلمين حقيقيين يمتزج علمهم بعملهم فى شتى المواقع ، فدارت بهم عجلة الحياة ، وتراجعت الأمية ، وأشرقت الصحة على الوجوه التى كانت ضامرة للفقراء والمعوزين ، ورأيت فيما يرى النائم الحالم أننا قد أزلنا العشوائيات فى إطار خطط تسكين تدريجى ، وأننا قد أعدنا هيبة القانون وجففنا منابع وأوكار الفساد ، فاستقام أداء الإدارة ، وأصبح كل مواطن شاعرًا بالمساواة والأمان .

ورأيت فيما يرى النائم الحالم ، أن مبادئ الدستور قد كفلت حقوق المواطنة للجميع ، وأنه بكفالتها قد زالت الحساسيات والاحتقانات مع اتساع الوعى باتساع التعليم وانتشار الثقافة وسيادة الاعتقاد بأن الدين لله والوطن للجميع ، وتحققت الفرص المتكافئة فى التعليم والعمل ، وفى رعاية صحية مكفولة للفقراء والأغنياء ، وأن العملية التعليمية

بأضلاعها الثلاثة قد طفقت تقوم برسالتها فى بناء الأجيال ، وأن حرية الفكر والتعبير قد دفعت بالحكماء والمثقفين الى الإسهام بدور فاعل فى بناء المجتمع وتوجيه الرأى العام ، وأن الرياضة قد صارت أسلوب حياة وصلحت أحوالها واستخلصت نفسها من بئر التعصب وسطوة الممارسات الضريرة ، وطفقت تفرز صحة فى الأبدان والعقول ، وتفيض بروحها الرياضية على العلاقات والتعاملات بين الناس ، وأن السياسة الاجتماعية قد طفقت تدفع السياسة الضريبية إلى اتجاه تصاعدي يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ، وتوالى تقديم الرعاية للطفولة والشيخوخة إعدادا للمستقبل ووفاء بحق من أدوا أدوارهم وآن لهم أن يخلدوا إلى راحة كريمة ، وأن ذلك كله قد أخذ يثمر فى تحقيق تكافل اجتماعي حقيقى يصير به الكل فى واحد والواحد للكل !

رأيت فيما يرى النائم أحلاما كثيرة تتحقق بها وفيها عناصر المدينة الفاضلة لمصر المحروسة ، وأصابني الذعر حين استيقظت وأدركت أن ما رأيته كان أضغاث أحلام ، ثم ردنى إلى بعض الطمأنينة أننا سوف نكون بخير حين نقدر على الحلم ، وأن الخطر كل الخطر يكمن فى فقدان هذه القدرة التى هى بداية الطريق لتحويل الأمانى إلى واقع تعود به الحياة إلى بر مصر !

*****